أسماء الجهات الست في القرآن الكريم

١ –تحت

د. كاطع جار الله سطام

كلية الآداب – الجامعة المستنصرية

توطئة : احتدمت في متن العربية ألفاظ استعملها العرب للدلالة على ما يحيط بهم من الجهات الست التي هي (فوق وتحت، يمين وشمال، أمام وخلف) وقد شغل النحاة القدامي بإعراب هذه الأسماء في حال لزومها الظرفية أو خروجها منها، ولكنهم لم يتوسعوا في بحثهم ليشمل تلمس الفروق الدقيقة بين الأسماء الدالة على الجهة الواحدة ولا الفروق الدقيقة بين التراكيب المختلفة في استعمال الاسم نفسه . فقد تعددت أسماء الجهة الواحدة نحو (أمام قدام، قبالة، أزاء) و (خلف ، وراء) و (تحت ، دون ، أدنى – دنيا ، أسفل –سفلى) و (فوق ، أعلى – عليا ، –أقصى – قصوى ، على) و(يمين ، ذات اليمين) و (شمال، ذات الشمال ، يسار) . وما جرى مجرى الجهات نحو (عند ، لدن ، وسط، بين ، حول) ثم إن كل اسم من هذه الأسماء جاء في أنماط متعددة من التراكيب وهو تعدد يفضي إلى اختلاف الإعراب المنبئ باختلاف الدلالة إذا ما علم أن علامات الإعراب دوال على المعاني ف (تحت) – مثلا جاءت مجرورة ب (من) في موارد قرآنية وغير مجرورة في موارد أخرى وفي حال جرها اكتفى المفسرون بالقول :

تحت خرجت عن الظرفية وفي حال عدم جرّها قالوا : تحت ظرف مكان مبني . وعلى الرغم من ذلك نلحظ بعض الالتماعات الدلالية التي تفصح عن شيء من مدلول أسماء الجهات الست ، ويمكن تلخيص ما ذكروه من معاني هذه الأسماء بما يأتي (١) :

١– إن هذه الأسماء لا تعرف حقيقتها إلا بذكر المضاف إليه بعدها ومن هنا قالوا إنها أسماء مبهمة .

٢–إن هذه الأسماء لا تلزم مسمّاها فما كان خلفك قد يكون (قدام) لغيرك وما كان تحتك قد يكون (فوق) لغيرك وما كان فوقك قد يكون (تحت) لغيرك .

٣–إن هذه الأسماء لا تقيد مسماها بمكانه تقييدا أبديا فما كان (تحت) اليوم قد يكون فوق أو يمين أو شمال أو خلف غدا ومثل هذا يقال في سائر أسماء الجهات التي تتعاور في الظرفية بحسب اختلاف الأمكنة مع مر الزمن وتختلف باختلاف الكائن في المكان لأنها جهات له .

٤–إن هذه الأسماء لا أمد لها معلوم فما خلفك يكون اسما لما وراء ظهرك إلى آخر الأرض وما كان (فوق) يكون اسما لما يعلوك علوا غير متناه في البعد والمسافة ممتدا ما امتدت السماء فوقنا ، وما كان أمامك كان غير محدود وكان هذا اللفظ يشتمل على جميع ما يقابل وجهك إلى أن تنقطع الأرض.

٥– إن هذه الأسماء تسمى غايات من جانبين أحدهما أنها حدود ونهايات لما تحيط به وغاية الشيء آخره فسميت بمعناها والآخر أن تمام الكلام يحصل بالمضاف إليه بعدها فإذا قطعت عنه صارت هي آخر وغاية نائبة عن غيرها وللوقوف على شيء من أسرار العربية عموما والتعبير القرآني خصوصا في استعمال أسماء الجهات الست ينبغي الإفصاح عن أمرين ما زال الغموض يحيط بهما:

الأول : تلمس الفروق الدقيقة بين أسماء الجهة الواحدة .

الآخر : التمييز بين دلالة التراكيب المختلفة في استعمال الاسم نفسه .

والمقام يطول ببحث جميع أسماء الجهات في القرآن الكريم لذا سيأتي البحث خاصا بالجهة (تحت) التي يمثلها اربعة ألفاظ قرآنية هي (تحت ، دون ، أسفل ، وأدنى) وفي النية إتمام البحث في هذا الموضوع كي يأتي في كتاب يجمع أطرافه.

أ: تحت

ورد ظرف المكان (تحت) في واحد وخمسين موضعا من التنزيل العزيز وقد جاء التعبير القرآني لجملة الظرف (تحت) زاخرا بالدلالات الدقيقة التي انكشف اللثام عنها بعد طول تأمل وإنعام نظر في التعبير القرآني فضلا عن التزود بالإشارات والالتماعات الدلالية التي قالها العلماء معتمدين على فهمهم الخاص وتذوقهم لكلام العرب وعلى العموم جاءت جملة الظرف (تحت) الذي مدلوله (أسفل الشيء في القرآن على نمطين :

الأول : اسم + تحت + اسم

وهذا هو النمط الحقيقي الذي يستدعيه مدلول (تحت)، إذ المفهوم منه في كلام العرب وجود اسمين (جثتين) أحدهما أسفل الآخر وقد جاء في القرآن الكريم ستة أمثلة لهذا النمط هي :

١ _ الكنز تحت الجدار ، وذلك في خبر موسى وصاحبه عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما) الكهف ٨٢ .

٢ – الضالون تحت الأقدام في قوله تعالى: (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) فصلت ٢٩

٣– المؤمنون تحت الشجرة في قوله تعالى : لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) الفتح ١٨

٤_امرأة نوح وامرأة لوط تحتهما في قوله تعالى : ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين .

فخانتاهما) التحريم ١٠ .

٥ – السري تحت مريم في قوله تعالى: ﴿ فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا) مريم ٢٤ .

٦_ ما تحت الثرى في قوله تعالى: (له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) طه٦

ويفهم من هذه الآيات أن ركني هذا النمط جاءا (جثتين) أما من الأحياء كالرجل وامرأته أو من الجمادات كالجدار والكنز أو جاء أحدهما جامدا والآخر حيا كالشجرة والمؤمنين . وكل هذا الاختلاف في تعدد نوع المسميين لا يضر في تحقق مدلول (تحت)، ولكن الشيء المهم الذي ينبغي توافره كي يتحقق مبدأ (التحتية) في هذا النمط هو تلازم الاسمين (الجثتين) بلا فاصل والتصاقهما بلا حاجز واستقرار أحدهما تحت الآخر استقرارا تاما لا انفلات منه ولا مناورة له وكل ذلك لمدة معلومة من الزمن وهذا هو المفهوم من وجود الكنز تحت الجدار والضالين تحت الأقدام ومعادن الأرض أو صخورها تحت الثرى . أما مبايعة المؤمنين تحت الشجرة فليست خارجة عن معنى الاستقرار اللازم المؤقت ذلك أن المطلوب التصاق بعض المؤمنين وتواجدهم فعلا تحت الشجرة أو استقرارهم تحت ظلها. وبعض الشيء يدل على جنسه وليس المراد أن جميع المؤمنين على كثرة عددهم الذي يربو على ألف وخمسمائة آنذاك (٢) كانوا محشورين تحت الشجرة وربما كان الاستقرار الآني حاصلا تحتها فعلا من قبيل مجيء كل واحد منهم إلى

شخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك المكان (تحت الشجرة) كي يبايع ومن عادة العرب في المبايعة أن يصفقوا اليد باليد وحينئذ يكون مبدأ التحتية قد تحقق فعلا مع جميع المؤمنين الذين توافدوا إلى (تحت الشجرة) للبيعة فقد نقل المفسرون أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان جالسا في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن منها (٣) . ومما يعضد هذا التصور أن جملة (تحت) وردت مقرونة بالجملة الفعلية (يبايعونك) وهي جملة فعلية فعلها مضارع تفيد الدلالة على التجدد والدوام على الفعل حتى الفراغ منه ، أي أن المبايعة استمرت بالتتابع تحت الشجرة حيث مجلس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (وليس المقصود اجتماع المؤمنين في ذلك المكان فحسب لأن اجتماعهم تحت الشجرة جميعا متعذر، أما البيعة فقد حصلت من لدن كل مؤمن تحت الشجرة . أما تحتية امرأتي نوح ولوط وهي (الاستقرار اللازم المؤقت فمتحققه فعلا من باب المجاز لأنها تعني القوامة والنفقة فضلا عن الوطء . ومن لطيف التعبير القرآني أن سمى ما تحت نوح ولوط بعد الخيانة امرأة) ولم يسمهما (زوجة) ذلك أن القرآن يستعمل الزوجة في موضع التوادد والمحبة ويستعمل المرأة في موضع البغض والنفور أو فتور الشعور بين الاثنين (٤). أما (سريا) الذي تحت مريم فقد اختلف العلماء في مدلوله فذهب أكثرهم إلى أنه جدول (٥) جعله الله تحتها كي تشرب منه وتأكل من فوقها بهر النخلة ولذا خاطبها بعد حين فقال فكلي واشربي وقري عينا) فجمع لها الشرب من الجدول والأكل من الرطب . وقال بعضهم : السري هو عيسى (٦) . ومدلول اللفظ (تحت) الذي قدمنا له في هذا النمط على أنه يفيد التلازم والالتصاق والاستقرار المؤقت يعضد الرأي الثاني القائل : إن السري هو عيسى عليه السلام لا الجدول ذلك أن الجدول والماء والأنهار وردت في سياق جملة (تحت) المجرورة بمن كما

سيأتي ولم يستعمل الماء تحت الشيء إلا بالتركيب (من تحت) فهذا دليل على أن السري ليس الماء هذا من جانب ومن جانب آخر أن مريم المصطفاة على نساء العالمين لا يعقل أن يكون حزنها لمجرد طلب الطعام كي تأتيها البشرى بالماء والرطب وحدهما لتقرّ بهما عينا ولا تحزن بـل المفهوم من قصة مريم أن حزنها كان لخوفها من الفضيحة وقد قدمت لهذا بقولها (ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) وليس تمنيها الموت بسبب نقص المؤونة والحاجة إلى الطعام قال تعالى : (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) مريم ٢٣ – ٢٩ . ومما يقوي هذا الرأي أن السياق يكشف أن قرة عين مريم ما تحققت بالماء والشراب بل بالنداء الصادر من تحتها معجزة تعصمها من ألسنة الناس وتدافع عنها حين يجتمع حولها أهلها وأبناء بلدتها الذين ما عرفوا عنها إلا الخير ولن يصدقوا ما جرى لها من الإنجاب دون رجل وقد أشارت مريم إلى عيسى لما حضرت بين قومها فهذا يدل على أنها كانت تعلم من شأن وليدها المعجز أنه يتكلم فجاءت به إلى قومها مطمئنة من براءتها ومستبشرة بمعجزتها ولو فسر السري بالجدول لما وجد في السياق ما يبشر مريم بالمعجزة (كلام الرضيع ومن ثم لا يتحقق لمريم قرة العين مقرونة بالأكل والشراب ، ومن طبائع البشر أن الخائف الوجس من المجهول لا

يزيح الطعام عنه خوفا ولا يدفع عنه فزعا ولكن لو اطمأنت النفس جاءت إلى طعامها قريرة العين ساكنة الفؤاد.

إن (الجثة) السفلى في هذا النمط ليست ملازمة لمكانها (تحت) ملازمة أبدية أو دائمية بل سوف تنفلت من هذه التحتية بعد حقبة معلومة كما هو شأن الكنز تحت الجدار والمؤمنين تحت الشجرة والمرأة الخائنة تحت زوجها والسري تحت مريم والضالين تحت الأقدام . وأما ما تحت الثرى من كنوز الأرض فعلى الرغم من أن العلائق تشير إلى أن المالك هو الله عز وجل لأنه (له ما تحت الثرى) جاء خلو (تحت) من حرف الجر (من) بملمحدلالي معجز يشير إلى أن ما تحت الثرى لا يبقى أبدا تحته فقد يتدخل الإنسان في قلب هذه المعادلة وذلك باستخراج المعادن من باطن الأرض أو قد تتدخل الطبيعة نفسها كما في البراكين والينابيع والزلازل ولا يضر ذلك في هيمنة الباري تعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا لأنه وحده له ما في السمرات وما في الأرض وسواء أخرجت الأرض ما في جوفها أو خرج ما فيها بفعل فاعل يبقى الملك جميعا الله . ولذا يمكن القول : إن ما يترتب على هذه التحتية (المؤقتة) من أحكام يزول بزوالها وينتفي باندثارها فرضوان الله مثلا على المؤمنين المبايعين تحت الشجرة كان مقرونا بتلك الحال التي عليها المؤمنون أي وجودهم تحت الشجرة للبيعة ومن التزم بالبيعة ومبادئها في قابل أيامه لازمه الرضوان الإلهي ومن أحدث بعد ذلك فلا تعصمه تلك البيعة من سخط الله والدليل على أن رضا الله كان آنيا مرتبطا بتلك الحادثة هو تصدر الجملة التفسيرية بعد الرضوان (إذ يبايعونك) بالظرف (إذ) الذي يفيد الدلالة على الأزمنة المختلفة (٢). بحسب نوع الفعل بعده فإن كان ما بعده ماضيا كان اسما للزمن الماضي وإن اتصل بـ (يوم) في التركيب (يومئذ) ووليه فعل مضارع دل على الاستقبال وإن دخل على مضارع وكان هو

مجردا خلص للدلالة على استيعاب ذلك الفعل المعلوم لحظة حدوثه كما في (إذ يبايعونك) وقد يقترن هذا المدلول بالتعليل أيضا فيكون المعنى إن الرضوان حاصل في ذلك الزمان بسبب البيعة تحت الشجرة فإن عدم المسبب (البيعة) عدم السبب (الرضوان) .

الآخر : الفعل وعلائقه + من + تحت + اسم .

ورد الظرف تحت مجرورا بمن في خمسة وأربعين موضعا من التنزيل العزيز وفي جميع هذه المواضع لم يرد ما كان تحت (جثة) وإنما جاء في الغالب فعلا صادرا من فاعل ظاهر أو معلوم وأحيانا يكون مقرونا بالمفعول أو بالمتعلق (الجار والمجرور) ويكون هذا الفعل أحيانا صادرا من مادة جريان الأنهار وأكل الطعام أو معنى أحيانا أخرى مثل النداء والعذاب في حين بقي الاسم الأعلى جثة ملموسة وكما يأتي :

١–جريان الأنهار + من + تحت + جنات .

وردت الأنهار جارية) من تحت الجنات في خمسة وثلاثين موضعا من التنزيل العزيز كقوله تعالى: ﴿ وبشر الذي آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار البقرة ٢٥ وقوله تعالى : (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار البقرة ٢٦٦ ، وقوله تعالى: ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ آل عمران ١٥. وهنا يشير التركيب من تحت إلى المكان الذي ابتدأ منه الجريان وهو في العادة (تحت) ثم انتشار ذلك الجريان وامتداده إلى ما شاء الله ، أي أن تحت إن جرت بمن فإن الاسم الأسفل سيكون مكان انبثاقه معلوما فضلا عن الإشارة إلى امتداده في الـ (تحت) ليشمل مجالا أوسع وسبيلا أرحب والجنة هي البستان من النخل والشجر المتكاثف الظل بالتفاف أغصانه وتشابكها بعضها على بعض وإنما سميت الجنة جنة لأنها تستر ما تحتها

بظلها، وأما تنكيرها وجمعها ففيه إشارة إلى أن الجنان كثيرة مرتبة ترتيبا يراعي استحقاق أهلها لها أما تعريف الأنهار تحتها فهو يفيد أحد شيئين : أما التقليل لأن ما كان معروفا محاطا بخبره كان قليلا وإن كثر عدده لأن إحصاءه حاصل فعلا أو أن التعريف يفيد الجنس فيكون المعنى جنات يجري من تحتها الماء (٤).

وإنما كانت الأنهار جارية من تحت باستعمال حرف الجر من لآن الجنات التي فوقها تنبت كما تنبت الأشجار فوق شواطئ الأنهار فالمقصود من التركيب من تحت خلال الأشجار وليس تحتها مباشرة بصورة ملاصقة وملازمة كما كان الأمر في النمط الأول وقد يكون المراد فضلا عن ذلك هو إن مكان صدور الأنهار من تحت إحدى الجنات ثم يجري خلالها فيخرج من جنة ويدخل في أخرى . وقد اختيرت الأنهار مع الجنات في ترغيب المؤمنين بها لأن الماء مصدر كل الحياة فالأشجار بلا ماء كالصور والتماثيل التي لا روح فيها . وجاءت الأنهار جارية في موضع واحد (تحت الجنات) وذلك في سورة التوبة في قوله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) التوبة ١٠٠ ، ليقود حذف حرف الجر (من) إلى ملمح أسلوبي معجز ذلك أن الفائزين بالجنات في هذه الآية هم السابقون الأولون منذ الخليقة حتى البعث أو منذ الإسلام حتى البعث وهم لا شك كثر ويمثلون صفوة البشرية وقد أعد الله لهم جنات كثيرة متجاورة مرتبة في المنزلة كل حسب استحقاقه وعلى الرغم من جريان الأنهار تبقى ملازمة تحت الجنان ولا تتجاوزها لأن الجنات كثيرة ككثرة الخالدين فيها والأنهار مهما استطال جريانها وكثر عددها وتفرعت أوديتها لا تخرج عن هذه التحتية لفرط امتداد الجنات ولو

قيل (من تحتها لفهم منه أن الأنهار قد تنبع فتجري من تحت الجنان ثم تخرج منها ولا تستقر تحتها فتقل الفائدة منها ولكن قيل (تحتها) إشارة إلى معني النبع والجريان فضلا عن الملازمة ولأجل إضفاء صفة الدوام على هذه التحتية الجميلة اللائقة بالفائزين بالجنة عقب بـ (خالدين فيها أبدا كي تؤكد هذه القرينة اللفظية معنى الاستقرار واللزوم في تحت ولو لم تكن هذه القرينة لكان الاستقرار آنيا مؤقتا على وفق ما تقدم من مدلول (تحت) وحدها في النمط الأول كاستقرار الكنز تحت الجدار والمؤمنين تحت الشجرة.

لقد جاءت الأنهار في هذا النمط من تحت ثلاث أسماء (جثث) أخرى غير الجنات وهي :

أ_(الناس) في أربع مواضع منها قوله تعالى (وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم) الأنعام ٧.

ب–(فرعون) في قوله تعالى ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي) الزخرف ٥١.

ج –(الغرف) في الجنة في قوله تعالى : النبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار) العنكبوت ٥٨.

وجريان الأنهار من تحت هذه الجثث الثلاث مشبه الجريانه تحت الجنات من حيث الإشارة إلى مكان صدوره التحتي وعدم تقييد جريانه بمكان وعدم ملاصقته وملازمتة للجثة التي فوقه . فلا يعقل أن تكون الأنهار ملاصقة للغرف وكذا لا يعقل التصاق الأنهار بالناس وفرعون فهذا يقود إلى غرقهم وإنما المقصود بالتحتيه هنا هو التخلل والقرب والإشراف على مصدر الماء الممتد في التحتية امتدادا قريبا إليهم حيثما ارتحلوا منقادا إليهم متى ما طلبوه . ولذا قيل في تفسير جريان الأنهار تحت فرعون بأنها تجري تحت قصره أو تحت سريره لارتفاعه أو بين يديه في جنانه وبساتينه (٩)

٢– أكل الطعام من تحت الأرجل ، في قوله تعالى: (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) المائدة ٦٦

وهنا الأكل الذي تحت الأرجل هو طعام ممتد لم يحصره التركيب (من تحت) بمكان محدد كما كان الكنز محصورا في مكانه (تحت الجدار) وإنما الطعام منتشر في التحتية ومتوافر تحت الأرجل أينما حلت وحيثما ارتحلت لأن التركيب (من تحت يفيد ابتداء الغاية المكانية ولا يشير إلى انتهائها . أما كيف يكون الأكل من فوق ومن تحت في الوقت نفسه فقد وجه بخمسة أوجه هي :(١٠)

– أن يأخذوا ما يأتيهم من ملوكهم وما يأتيهم من عوامهم .

–أن يفيض عليهم مطر السماء ونبات الأرض.

–أن ينعم عليهم من رزق الجنة ورزق الدنيا.

–أن يكثر الأشجار المثمرة فوقهم والزروع المغلة تحتهم.

–أن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار فيجتنون الثمر المتهدل من رؤوس الشجر ويلتقطون الثمر المتساقط على الأرض.

وواضح من السياق أن الوجه الثالث أقرب ما يكون إلى معنى الآية لأن اقتران الظرفين (فوق ، تحت) بـ (من) يومئ إلى بركات الأرض من أشجار شامخة بثمارها وزروع مغلة بحبها .

بعث العذاب + من + تحت + الأرجل ، في قوله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) الأنعام ٦٥ . وفي قوله تعالى:(يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) العنكبوت ٥٥ . وقد تشعبت أقوال المفسرين في توجيه مجيء العذاب من فوق ومن تحت في الوقت نفسه فأكثرهم على أن ذلك سيحصل بالحجارة من فوق كعذاب قوم

لوط وأصحاب الفيل والغرق من تحت كطوفان قوم نوح وقال بعضهم : كما أغرق فرعون وخسف بقارون وقيل من فوقكم من قبل أكابركم وسلاطينكم ومن تحت أرجلكم من قبل عبيدكم وسفلتكم (١١) . ومدلول (تحت) الدقيق يأبي أن يكون المقصود بها في هاتين الآيتين العبيد أو سفلة القوم ولذا يكون تفسيرها بخسف الأرض أو الغرق هو الراجح والقرينة اللفظية (يغشاهم) ترجح أن يكون العذاب من تحت خسفا أو غرقا لأن فيهما الإغشاء أيضا فهو حاصل من تحت كحصوله من فوق ..

نداء عيسى من تحت مريم . في قوله تعالى فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا ولاشك أن جر (تحت) الأولى بـ (من) في هذه الآية وترك الثانية من دون جر يشعر بأن التركيبين مختلفان فالجملة الأولى فناداها من تحتها جرت فيها (تحت) بمن لأن النداء معنى لا جثة ولذا لا يحصل التلازم والإلصاق كما حصل بين الجثتين في النمط الأول ثم إن النداء قد امتد وانتشر لأنه المعجزة الإلهية التي ربطت على قلب مريم فكانت قرة عين لها في مكانها الشرقي بعد الولادة ثم كانت آية كبرى برأتها أمام قومها من البغي والسوء ، وهذا هو المفهوم من (ناداها) . أما (تحتك سريا) فقد سبقت الإشارة إلى أن معنى اللزوم الإلصاق قد تحقق بين الاثنين عيسى وأمه وأن تفسير السري بالجدول بعيد بالاعتماد على القرائن اللفظية والاستعمال القرآني .

الظلل من تحتهم ، في قوله تعالى : (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون) الزمر١٦ ومعنى ظلل من النار : طبقات منها تظللهم (١٢) . وهنا لو كانت الظلل النارية ملاصقة من أسفلهم لاحترقت أجسادهم ولكن فهم من جر (تحت) بـ (من) عدم الاتصال بين الظلل النارية والأجساد اتصالا مباشرا وكذا فهم أن هذه

الظلل منتشرة ممتدة ما امتد الناس وانتشروا وتفرقوا ومشتقات الجذر (ظلل) تفيد التغشية والتغطية من الأعلى وهذا مفهوم عندما تكون الظلل من فوقهم أما كون الظلل من تحتهم فدليل على أن التركيب من تحت يفيد الدلالة على ابتداء الغاية المكانية ثم انتشارها إلى مكان لا حدود له وقد يكون هذا الانتشار أفقيا وهو الغالب وقد يكون عموديا ليشكل (ظلل) كما في هذه الآية . ويبدو أن المقصود بالظلل التي من تحت هي البراكين التي يشكل دخانها وحممها المقذوف طبقات في السماء والظلل التي من فوق هي الصواعق وهذه ممتدة على مدى الأرض من فوق ومن تحت ولا تتصل بالناس اتصالا مباشر إلا ما ندر أو ربما يكون المراد من الظلل أشعة الشمس المحيطة بجرم الأرض من كل الجوانب فضلا عن (فوقهم وتحتهم) وقد جاءت القرينة اللفظية ابتداء (لهم) لتربط على القلوب من أن تلك الظلل النارية خيرها أكثر من شرها وخيرها يتمثل بأنها عبرة ونذير وتذكرة ولو أريد الشر منها لقيل (عليهم) وجاءت القرينة اللفظية (يخوف) لتبين سبب وجود هذه الظلل تحت الناس من دون اتصال مباشر بهم وهو إظهار مسبب الخوف لهم شيئا فشيئا لعلهم يتقون وذلك من لطف الله بالعباد ولو شاء لأخذهم أخذ عزيز مقتدر كلمح البصر أو هو أسرع فسبحان الذي جعل الظلل من النار من فوقنا ومن تحتنا ولم يجعلها (فوقنا وتحتنا) ، وجاء تكرار الظلل في سياق الآية بالعطف ليوحي إلى إن الظلل التي من فوقهم غير الظلل التي من تحتهم ولو لم تكرر الظلل لعلم أنها واحدة .

ب : أسفل _ سفلى

(أسفل) ظرف مكان تقترب دلالته كثيرا من (تحت) ولكنهما مختلفان في القرآن الكريم من حيث إن الاستعمال القرآني للظرف تحت لا يفصح عن إن ما كان أعلى مهيمن على ما كان أسفل ومسيطر عليه وقاهر له ولا يفصح

عن إن ما كان (تحت) كان ذليلا حقيرا فلا الشجرة مهيمنة على المبايعين ولا الكنز أحقر من الجدار وهنا يظهر الفرق بين (تحت) و (أسفل) ذلك أن ما كان أسفل كان هابطا مغلوبا وهذا هو مدلوله في الموارد القرآنية العشرة التي ورد فيها إذ دل فيها على هبوط (العاقلين) كقوله تعالى: ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين التين . أو هبوط أفعالهم كقوله تعالى: وجعل كلمة الذين كفروا السفلى التوبة ٤٠ أو هبوط منازلهم كقوله تعالى : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) النساء ١٤٥ وهذا النوع من الهبوط يكون مشوبا بالذلة والاحتقار والإهانة والقهر والبطش ومدلوله في التنزيل بعكس مدلول العلو(١٣) . قال تعالى : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) هود ٨٢ ولا شك أن في العلو سموا ورفعة وفي نقيضه (أسفل) إذلالا وضعة . ولذا كان مجيء الأحزاب في معركة الخندق من (أسفل) في قوله تعالى إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم الأحزاب ١٠ ولم يكن المجيء من تحت على الرغم من أن السياق يستدعي (من تحت) لا (من أسفل) لوجود (من فوق) قبلها وذلك أن في المنزلة (أسفل) تحقيرا وإهانة للأحزاب وهي حاصلة بعد أن كفى الله المؤمنين القتال بسيف علي (عليه السلام) والجنود التي لم يروها والريح الصرصر (١٤) ووجه التحقير باستعمال اللفظ أسفل أنه لفظ دل على مبالغة في الهبوط والارتكاس والسفل كونه على بناء أفعل التفضيل التي يستدعي تركيبها اشتراك اسمين في الفعل وغلبة أحدهما فيه وفي هذه الآية يتبين أن المسلمين كانوا في منزل وسط سفح الجبل بين العلو الهبوط فهم تحت بالمقارنة مع الذين جاؤوهم من فوق الجبل وأعلى بالمقارنة مع الذين جاؤوهم من أسفل الجبل ولما اشترك منزل المسلمين ومنزل الأحزاب القادمين (من أسفل منكم) صلحت المفاضلة في السفل بين المنزلتين وهي مفاضلة أفضت من جانب إلى تحديد دقيق لمنزل المسلمين وهو سفل غير

مبالغ فيه ومن جانب آخر فضحت المفاضلة مكانة الأحزاب فوسمتهم بالسفل المبالغ فيه وهذا تحقير لشأنهم لفظا فضلا عن الواقع. ومثل هذا قوله تعالى في مشهد من معركة بدر (إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم) الأنفال ٤٢. فقد نقل المفسرون أن المقصود بالركب هم الأربعون الذين كانوا يقودون قافلة قريش وهم بقيادة أبي سفيان (١٥). فلا غرو إذا من أن يخبر عنهم بـ (أسفل منكم بغية تحقير شأنهم وضعف مركزهم في أعين المسلمين الذين كانوا وجسين من حرب قريش بقضها وقضيضها .

ومن هنا يمكن القول : إن المدلول اللغوي للفظ (أسفل يدل في أصل وضعه على الإهانة والتحقير ولو مجازا وأما (تحت) فإن مدلولها اللغوي لا يقود إلى تلمس مثل تلك الدلالة ويمكن القول : إن العلاقة ما بين (تحت وأسفل) هي أن أسفل مبالغة لـ (تحت) ذلك إن أسفل لفظ جاء على بناء (أفعل) وهو بناء أصلي في المفاضلة بين اثنين في فعل معين وغلبة أحدهما الآخر في ذلك الفعل ومادام التسابق والتفاضل في تركيب (أسفل مخصوصا بالسفل والارتكاس كان الغالب (الفاضل أكثر إهانة وأشد تحقيرا من المفضول فقوله تعالى : (كلمة الذين كفروا السفلى) التوبة ٤٠ يستدعي وجود كلام سافل كثير لكن كلمة الذين كفروا أكثر سفلا منه و (السفلى) تأنيث أسفل، وقوله تعالى : (الركب أسفل منكم) الأنفال ٤٢ يومئ إلى أن ثمة قوما مقيمين في منزل مستقل وهم المسلمون لأنهم في العدوة الدنيا لكن ركب أبي سفيان في منزل أكثر سفلا وإنما لم ينعت منزل المسلمين بالعدوة السفلي إذ العدوة الدنيا أسفل العدوة القصوى وذلك أن (أسفل) تحقير في أصل وضعه فاقترن بركب أبي سفيان ولم يقترن بالمسلمين وهذا هو وجه الفرق الرئيس بين (تحت) و (أدنى – دنيا) من جهة وبين (أسفل) من جهة أخرى ولذا كان لا بد من وجود القرائن اللفظية في سياق (تحت) إذا ما أريد تحقير الاسم الثاني

في جملتها مثل (الأقدام) و (يكونا من الأسفلين) كما في إذلال الضالين في قوله تعالى: (أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) فصلت ٢٩ . وعلى وفق هذا المدلول الدقيق للاسم تحت يمكن حسم الخلاف في معنى التحوت في قول الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) : << لا تقوم الساعة حتى تظهر التحوت ويهلك الوعول >> (١٦) .

فقد فسر اللغويون (١٧) الوعول بالأقوياء والجبابرة أما التحوت فذكروا له ثلاثة أوجه :

–التحوت هم الأراذل السفلة الذين كانوا تحت أقدام الناس لحقارتهم والمعنى لا تقوم الساعة حتى يرتفع الحقير ويوضع القوي العزيز.

–التحوت هي الكنوز التي تحت الأرض والمعنى لا تقوم الساعة حتى تظهر الكنوز ويهلك الجبابرة .

–التحوت هم الضعفاء والفقراء من الناس والمعنى لا تقوم الساعة حتى يستغني الفقير ويهلك الغني .

وواضح من سياق الحديث أن معنى التحوت على النقيض من معنى الوعول لوجود المقابلة بين (يظهر ويهلك) قبلهما فعلى هذا يكون الوجه الثاني الذي يفسر التحوت بالكنوز ضعيفا لأن السياق يأباه وإن كان له ما يعضده في القرآن الكريم وهو قوله تعالى : (وأخرجت الأرض أثقالها) الزلزلة ٢ . أما تفسير التحوت بالسفلة والأراذل والحقراء فبعيد جدا بل فيه تعسف وتمحل وإلغاء للتفويض الإلهي لأن الظاهر من التسليم بهذا يقود إلى أن هؤلاء التحوت مجبولون على الضعة والحقارة راضون بها وعندما ظهروا على الجبابرة الأقوياء كان ذلك ظلما وعدوانا والأمر ليس كذلك ثم إن تفسير التحوت بالحقراء والأراذل لا يلائم الروايات التي تشير إلى أن الأرض ستملأ ظلما وجورا قبل دولة الإمام المنتظر وستملأ عدلا وقسطا في

دولته ذلك أن ظهور الأراذل الحقراء على الجبابرة قبل دولة المهدي ليس ظلما بل هو من باب إزاحة الظلم وأما في دولة الإمام المهدي فلا مكان للجبابرة أصلا ومن ثم يكون تفسير التحوت بالأراذل والحقراء غير موجه ولا يناسب مقام أصحاب الإمام عجل الله فرجه الشريف . فعلى هذا لم يبق إلا تفسير التحوت بالضعفاء وتفسير الوعول بالأغنياء وهذا ملائم لأحاديث أشراط الساعة ودولة المهدي لأن ظهور الفقراء واختفاء الأغنياء لهو قمة العدل والقسط وتفسير التحوت بالضعفاء والفقراء مناسب للتعبير القرآني الذي ثبت فيه أن مدلول تحت وما يشتق منها هو منزلة لا ضعة فيها ولا مغمز لصاحبها من لدن ذوي الألباب الذين لا يرون في الفقر عيبا وحقارة .

ج : دون

دون في كلام العرب ظرف مكان حقيقة أو مجازا ولا يتصرف فيه بغير من (١٨) وقد ورد في الظاهر من كلام العرب بمدلول مناقض لفوق وذلك حين يقابله في السياق كقول الإمام علي (عليه السلام) لأحدهم وقد راءه بالثناء عليه : (أنا دون هذا وفوق ما في نفسك) (١٩) . وأما في القرآن فقد ورد الظرف (دون) في مئة وأربعة وأربعين موردا من القرآن الكريم في جميعها جاء ملازما للإضافة أما إلى الظاهر أو إلى الضمير ، في تسعة موارد منها جاء ظرفا مبنيا على الفتح وفي المواضع الأخرى ورد مجرورا بمن ووجه اقتراب مدلول (دون) من (تحت) أنّهما متشابهان من أربعة جوانب :

-كونهما يلازمان الإضافة لا ينفلتان منها في القرآن.

-كونهما يأتيان ظرفين مبنيين قليلا .

-كونهما يأتيان مجرورين بمن كثيرا .

-كون المفهوم من تركيبهما وجود اسمين أحدهما مستعل والآخر مستقل .

وفي نوع العلاقة بين هذين الاسمين وطبيعة الاتصال بينهما ينماز (تحت) من (دون) فمع استعمال (دون) تكون العلاقة الأصلية الحقيقية المحسوسة بين الاسمين أفقيه لا عمودية ولا اتصال مباشر بين الاسمين في تركيب (دون) وليس الاسم المستعلي مهيمنا على المستغلي مغطيا إياه بل المطلوب في جملة (دون) العكس وهو أن يغطي المستغلي على المستعلي نحو (الستر من دون الشمس) في قوله تعالى في مشهد من قصة ذي القرنين (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) الكهف ٩٠ وكذا الحجاب دون أهل مريم في قوله تعالى : (فاتخذت من دونهم حجابا) مريم ١٧ أي إن ما قبل دون يستر ما بعدها ويحجبه عن الحواس أو الإدراك حجبا حقيقيا أو مجازيا تاما أو جزئيا ومن جانب آخر يلحظ وجود اسم قائم بالأمر أو متصف به أو مالك له يتحكم بطرفي العلاقة في تركيب (دون) فيجعل أحدهما دون الآخر ولا بد من وجود هذا الاسم في تركيب (دون) وغالبا ما يكون فاعلا لفظا أو معنى على حين يجوز الاستغناء عنه في تركيب تحت ولا يسأل عنه في حال حذفه وذلك للعلم به أو لأنه مفهوم واضح فلم يسأل المفسرون عمن وضع الكنز تحت الجدار ؟ ومن الذي أمر المسلمين بالبيعة تحت الشجرة؟ لكن هذا الاسم هو الأول في الرتبة المستحصلة من مدلول جملة (دون) ويأتي بعده المستغلي ثم المستعلي ، أي أن الرتبة في جملة (دون) تكون على وفق ما يأتي :

الفاعل لفظا أو معنى + دون + اسم مستعل وهو ملازم الإضافة إلى دون

والتطبيق على هذه الرتبة مطرد في جميع الموارد في القرآن الكريم نحو :

–مريم تتخذ الحجاب دون أهلها (فاتخذت من دونهم حجابا) مريم ١٧ .

–الله يجعل الستر دون الشمس (لم نجعل لهم من دونها سترا) الكهف٩٠.

–موسى يجد امرأتين دون الناس (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان) القصص ٢٣ .

–الخائف مقام ربه له جنتان دون جنتين (ولمن خاف مقام ربه جنتان...من دونهما جنتان) الرحمن ٤٦ --- ٦٢.

–ذو القرنين يجد قوما دون السدين (حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا) الكهف ٩٣.

–الكافرون يتخذون آلهة دون الله (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا) المائدة ٧٦.

وعند النظر في أقوال العلماء في تفسير الآيات التي ورد فيها دون يتبين أن (دون) لديهم من المشترك اللفظي وإن لم يصرحوا بذلك إذ تشعبت المعاني التي فسروا بها دون وفي كل آية يذكرون معنى يختلف عنه في آية أخرى ومما ذكروه من معاني دون : تحت ، غير ، أحقر ، أدنى ، أقرب . قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : (وادعوا شهداءكم من دون الله) البقرة ٢٣ : << معنى دون أدنى مكان من الشيء ومنه الشيء الدون وهو الدني الحقير ودون الكتب إذا جمعها لأن جمع الأشياء إدناء بعضها من بعض وتقليل المسافة بينها يقال هذا دون ذاك إذا كان أحبط منه قليلا ، ويقال دونك هذا وأصله خذه من دونك أي من مكان أدنى مكان منك فاختصر واستعير للتفاوت في الأحوال والرتب فقيل زيد دون عمر في الشرف والعلم ومنه قول من قال لعدوه وقد راءه بالثناء عليه أنا دون هذا وفوق ما في نفسك واتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي حكم إلى حكم قال تعالى : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أي لا يتجاوزا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين (٢٠) .

وعلق الشريف الجرجاني قائلا :<< معنى دون هو في أصله للتفاوت في الأمكنة يقال لمن هو أنزل مكانا من الآخر هو دون ذاك فهو ظرف مكان مثل عند إلا أنه ينبئ عن دنو أكثر وانحطاط قليل >> (٢١)

وقال أبو حيان في تفسير (من دون الناس) البقرة ٩٤ :<< دون هنا لفظ يستعمل للاختصاص وقطع الشركة تقول هذا ولي دونك وأنت تريد لاحق لك فيه معي ولا نصيب وفي غير هذا المكان يأتي لمعنى الانتقاص في المنزلة أو المكان أو المقدار >>(٢٢) . وعلى العموم يلاحظ من أقوال المفسرين الآتي :

–دون يشتمل على معنى الدنو لتوافقهما في الحروف الأصول وإن تخالفا في ترتيبهما وليس أحدهما قلبا للآخر لاستوائهما في التصرف وكذلك جميع ما أخذ منه يشتمل على معنى الدنو وهو حقيقي كدون الكتب وأما في المجاز كالدون بمعنى الحقير فمن باب التطور الدلالي الذي يستدعي في أحد جوانبه هبوط الدلالة ومن هنا قيل : إن الدنو شاع استعماله في الحقارة ، وإن دون يستعمل في انحطاط محسوس فهذا أول توسع فيه .

–استعمال دون بمعنى أدنى مكان أعني المكان الحقيقي الأصلي من باب أن (أدنى) مبالغة لدون وهما مثل ساحر وسحار في قوله تعالى: (يأتونك بكل ساحر عليم) الأعراف ٢٢ او (يأتونك بكل سحار عليم) الشعراء ٣٧. وقد اجتمع اللفظان في قوله تعالى: (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) السجدة ٢١ ولذا لا يعقل تفسير دون بأدنى .

–استعارة دون للتفاوت في المراتب المعنوية إنما جاء من باب التشبيه . بالمراتب المحسوسة وشاع استعماله فيها أكثر من استعماله في الأصل ثم اتسع في هذا المستعار فاستعمل في كل تجاوز حد على حد وإن لم يكن هناك. تفاوت أو انحطاط فهو في المعنى مجاز وهو بهذا المعنى قريب من أن يكون بمعنى غير كأنه أداة استثناء .

ومن خلال النظر في التعبير القرآني يمكن القول إن المدلول الرئيس لـ (دون) هو أن يحجز الشيء المستفلي القريب شيئا أكبر منه وأعلى منه وأبعد عن الحس أو الإدراك وهذا معنى أصيل في التراكيب الحقيقية : كالحجاب دون أهل مريم والستر دون الشمس وفرع في التراكيب المجازية كالمرأتين دون القوم والجنتين دون الجنتين والعباد دون الله وآلهة دون الله .

ولما كان الستر أو الحجب مستلزما القرب من الشيء المستور والدنو منه فسرت دون بأقرب وأدنى من هذا الجانب وهو تفسير مقبول ولكنه لا يلغي التفسير الأصلي وهو حجب ما بعدها والتعمية عليه وتغطيته والذي ساعد في دلالة دون على القرب أن المعنى الرئيس للدنو (مقلوب دون) هو القرب وقد أشار ابن جني منذ زمن بعيد إلى هذه الظاهرة وسماها الاشتقاق الكبير وعرفها بأن تأخذ أصلا وتعقد عليه وعلى تقلباته الست معنى جامعا فإن خرج أحد تلك التقليبات عن ذلك المعنى رد إليه بلطف الصنعة وحسن التأويل وضرب له أمثلة كثيرة دلت تقليباتها المستعملة على معنى جامع (٢٣) . وأما دلالة دون على التحقير فلم يرد عليها مثال في التنزيل العزيز ولكنيه التعريفية بالصور استعمال شائع في كلام العرب واللهجات العربية لا سيما العراقية التي استعملت النسبة إلى دون للدلالة على التحقير والإهانة وهو استعمال غاية في المجاز إذ أن دون دلت على القرب وهو الدلالة الجانبية لها ثم خصصت بالدلالة على القريب من الأرض الملازم لمكانه فيها فكأنه في مكان وضيع محبط لا يجاوزه إلى ما هو أرقى منه ثم هبطت دلالة اللفظة فصارت تعني الحقير والخسيس في اللهجة العراقية وليست هذه الدلالة ظاهرة في أصل وضع اللفظة وربما ساعد قربها في الاشتقاق من الدناءة على قبول مدلولها الهابط

وصفوة القول في مدلول دون أن ما قبلها يحجز ما بعدها على الرغم من أن ما قبلها أقل شأنا مما بعدها وهذا الستر قد يكون حقيقيا أو مجازيا وقد يكون امتداد الركنين في تركيب (دون) أفقيا أو عموديا لكن الامتداد الأفقي لهما هو الأصل وأما العمودي فمن باب المجاز . وعلى وفق هذا يمكن حسم الخلاف في توجيه كثير من الموارد التي وردت فيها دون في القرآن الكريم ، ويكفي الإشارة إلى أقوال العلماء في قوله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان ... ومن دونهما جنتان) الرحمن ٤٦ و٦٢ . قال النحاس : في معناه قولان : أحدهما من دونهما في الدرج والقول الآخر ومن دونهما في الفضل (٢٤) . وقد رأى المفسرون (٢٥) أن الجنتين المذكورتين ابتداء في (ولمن خاف مقام ربه جنتان) هما أهم من اللتين ذكرتا لاحقا و (من دونهما جنتان) لأن الجنتين الأوليين (ذواتا أفنان ، فيهما عينان تجريان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، كأنهن الياقوت والمرجان) وأما اللتان من دونهما فهما (مدهامتان ، فيهما عينان نضاختان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فيهن خيرات حسان حور مقصورات في الخيام لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) وأنت ترى أن رؤية الأغضان المتدلية عن قرب أجمل في عين الرائي من النظر البعيد إلى لون الدهمة والسواد ، وأن جريان الماء خير من نضوخه وأن الفاكهة المذكورة أولا مرادا بها الجنس كله ولذا لم يحتج إلى تعدد الأصناف في حين لم يقصد الجنس كله في المورد الثاني فاحتاج إلى ذكر النخل والرمان والفراش المذكور أولا وصف باطنه بالبهاء فكيف لا يكون ظاهره كذلك في حين اكتفي بوصف ظاهر الفراش في المورد الثاني وأن الحسان في المورد الأول قاصرات الطرف بأنفسهن ولذا وصفن بالياقوت

والمرجان وأما في المورد الثاني فهن مقصورات في الخيام ولذا لم يوصفن بالجواهر النفيسة . وعندما نعود إلى قول النحاس المذكور آنفا يمكن القول : (إن من دونهما) يعني الفضل والدرج معا لأن وجود جنتين دون جنتين يعني أن اثنين منهما أقل شأنا من الأخريين إذ المفهوم من ترتيب الأسماء في تركيب دون أن ما قبلها يكون سابقا لما بعدها لأنه ساتر له وحاجب ومغطس فكأن المعنى أن الخائف مقام ربه له جنتان قريبتان فيهما من الفضل والخير ما يؤنسه ويهيئه إلى الانتقال التدريجي إلى الجنتين الأخريين الأكثر أهمية من وقد سبقت الإشارة إلى اختلاف جملة (تحت) عن جملة (من تحت) ومثل هذا الختلاف يلحظ أيضا في القرآن الكريم بين (دون) و(من دون) ذلك أن دون تفيد التدرج في تقريب الاسم المستفلي من منزلة الاسم المستعلي إلى درجة المساواة أو الاتصال في نظر الفاعل كتقريب الآلهة من الله في نظر ال المشركين في قوله تعالى: أنفكا آلهة دون الله تريدون الصافات ٨٦ واقتراب الجن الفاسدين من منزلة الجن الصالحين لأنهم في المملكة نفسها في قوله تعالى: ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك الجن ١١ وأما التركيب (من دون) فيفيد التدرج في التباعد بين منزلة الاسمين في نظر الفاعل إلى درجة الانقطاع التام بينهما وهذا هو حال الدعاة المتمسكين بـ (شهداؤهم) زورا وجهلا مبتعدين عن طاعة الله في قوله تعالى : (وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) البقرة ٢٣ وكذا حال المتخذين أندادا يحبونهم كحب الله في قوله تعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) البقرة ١٦٥. وهذا هو حال مريم لما اتخذت الحجاب في قوله تعالى : (فاتخذت من دونهم حجابا) مريم ١٧. وهذا حال موسى لما وجد المرأتين في قوله تعالى: (ووجد من دونهم امرأتين تذودان) القصص ٢٣ والامثلة على هذا

الملمح الدلالي كثيرة ولا يخرج منها عنه مورد قرآني والمقام يطول بسردها جميعا

د : أدنى – دنيا

أدنى ظرف يوحي ظاهره إلى اقتراب مدلوله من مدلول تحت المجيئه دالا على منزلة تحت أخرى في السياق نفسه نحو (أدنى الأرض) الروم ٣ و (عرض هذا الأدنى) الأعراف١٦٩ والظرف أدنى عند المفسرين يمكن أن يقال : إنه من ألفاظ المشترك اللفظي وإن لم يصرح أحد منهم بذلك ولكنه مدرك من أقوالهم التي تشعبت في تفسيره فقد فسر بـ (أقرب ، أخس ، أقل ، أصغر). فهو لديهم بمعنى أقل في قوله تعالى إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه المزمل ٢٠ وبمعنى أخس وأحط في قوله تعالى: (اتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) البقرة ٦١ وقوله تعالى : (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) الأعراف ١٦٩ وبمعنى اقرب في قوله تعالى : ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) النحم ؟ وبمعنى أصغر في قوله تعالى: (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) السجدة ٢١ وأما من حيث الاشتقاق فهو عند أكثرهم أفعل من الدنو بمعنى القرب وذهب بعضهم أنه أفعل من الدناءة بمعنى الخسة والرداءة وذهب بعضهم إلى أنه أفعل من الدون وأصله أدون ثم قلب إلى أدنو ثم صار أدنى بوزن أفلع الآن (٢٦) . ومن هنا يفهم تشتت أقوال المفسرين فيها إذ تعددت وجوه التفسير تبعا لتعدد وجوه الاشتقاق والقرآن يرجح أن أدنى أفعل التفضيل من الدنو وهو القرب وهذا يكون حقيقيا في المحسوسات ومجازيا في المعنويات ومن استعمالها في المجاز قوله تعالى: (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) السجدة ٢١. وقد كثر الحذف في تركيب أدنى إذ يحذف بعدها المفعول به غير الصريح وهو المجرور بـ (إلى) ويحذف المفضل منه بعدها أيضا

كثيرا ويمكن أن يوضح تفسير أدنى بأقرب بقولنا : (يوسف أدنى إلى أبيه من إخوته) ولكن لما حذف المتعلقين بعد أدنى قرب معناها من الإبهام ومالت دلالتها نحو الاشتراك اللفظي والمجاز وربما الهبوط وما هي بهابطة في القرآن الكريم وليست من المشترك اللفظي وإنما معناه الرئيس هو (أكثر دنوا) والدنو قد يكون مكانيا أو زمانيا كما في : أدنى الأرض و أدنى من من ثلثي الليل وهنا يعلم أن (أدنى) ليست خالصة للمكان كما كانت (تحت) و (أسفل) . ولما كان (أدنى) أفعل التفضيل فإن تفسيرها بمعنى الخسة والدناءة عالم والحقارة بعيد بل منكر ذلك أن أفعل التفضيل تستدعي اشتراك اسمين في فعل أو صفة ما وغلبة أحد ذينك الشيئين صاحبه في ذلك أي أن تفسير أدنى بأحقر أو أو أخس يقود إلى تحقير المفضل والمفضل منه معا لأنهما مشتركان في الفعل أو الصفة وهذا لا يرمي إليه عاقل والتسليم به يقود إلى واقتصاب . تحقير كل الأسماء الواردة في سياق أدنى. أما تفسيرها بأقل فمن باب المجاز طليق من ذلك أن العذاب عندما ينعت بالأدنى فإن دنوه لا يقاس بمقدار دقيق محسوس ولذا يفسر (أدنى) ذو الدلالة المجازية بأقل لأن القلة لا تستدعي التحديد والدقة . ولذا يمكن القول : إن (أدنى) الوارد في اثني عشر موردا من التنزيل العزيز كلها دلت على معنى القرب بنوعيه (الحقيقي والمجازي) أو (المكاني والزماني) وقد جاء (أدنى) بمعنى القرب المكاني في قوله تعالى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى النجم ؟ وهنا يفهم اشتقاق أدنى من الدنو لمجيء دنا قبله لأن المعنى هو دنو جبرائيل (عليه السلام) من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مسافة مقدارها أقرب من مقدار المسافة المقدرة بطول قوسين (٢٧).

وقد اقتربت دلالة (أدنى) كثيرا من دلالة (تحت) في قوله تعالى : (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت

الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال اتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) البقرة ٦١ فالطعام الواحد الذي هو خير كان قد أنزله الله تبارك وتعالى من السماء وهو في وقوله تعالى : (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى) البقرة ٥٧ والإنزال لا يكون إلا (من فوق) وسمي ما يخرج من الأرض (أدنى) وهو بمعنى (تحت) بالقياس إلى مقابله (المن والسلوى) ولذا كان استبدالهم ما يخرج من الأرض بما نزل من فوق منكرا لأنهم رغبوا عن الفاضل المعجز (خير) ورغبوا في المفضول المعروف (أدنى) والمفضول في قوله تعالى : (قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) البقرة ٦١ أقرب إلى مداركهم وهو الزرع الذي يستدعي الجهد والعمل وهو مفضول بما كان منزلا من عند الله (المن والسلوى) فهذا فضلا عن كونه معجزة وتشريفا لهم لا يكلفهم جهدا ولا نصبا خلا أن مداركهم بعيدة عن إدراك مكنونه لأنه ليس (أدنى) . وهنا يكون الشيء الأدنى قريبا من محلين أو موضعين لا يرتفع أحدهما فوق الآخر ارتفاعا محسوسا كما كان الأمر في تحت وإنما الارتفاع معنوي يتمثل بتفضيل أحدهما على الآخر بمقدار قربه من ذلك (الشيء الأدنى) بعد أن اشترك الموضعان بصفة القرب من ذلك الشيء وغلب أحدهما صاحبه في الدنو منه فالمقصود بقوله تعالى في الإشارة إلى آية الدين : (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) البقرة ٢٨٢ : ذلك أقرب إلى انتفاء الريبة (الاطمئنان) من الريبة (٢٨) ، فالكتاب بين المتداينين يكون قريبا من الاطمئنان ومن الريبة ولكنه إلى الاطمئنان أقرب وهذا هو معنى أفعل التفضيل في العربية . وفي قوله تعالى : (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا) المجادلة ٧

يكون المقصود بأدنى عددا قريبا من الأعداد المذكور وقريبا مما فوقها ولكنه إلى هذه المذكورة أقرب وربما يكون (اربعة) تحديدا لأنه يشترك في الدنو نفسه من الثلاثة والخمسة لأن (أدنى من ذلك) يعني الثلاثة والخمسة ولا ينبغي التمسك بالمقابل له (أكثر) على أن المقصود بأدنى هو (أقل) لأن المناجاة لا تحصل من واحد لأنها مشاركة وأما الاثنان فليس قريبا من الخمسة فلا يصدق عليه (أدنى من ذلك) والمراد الثلاثة والخمسة وكذا لو جاوز العدد خمسة لا يكون دانيا من ثلاثة فلم يبق إلا الأربعة ولذا عقب بعد ذلك بـ (ولا أكثر) أي أكثر من الخمسة .

وعلى هذه الشاكلة يمكن جلاء المعنى الدقيق لـ (أدنى) في التعبير القرآني إذ هو بمعنى (أكثر قربا) وهو قرب لا تشوبه الخسة والرداءة كما فهم كثير من المفسرين من ظاهر قوله تعالى في أمة من بني اسرائيل: (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه) الأعراف ١٦٩ إذ قال الزمخشري : هو من دنو الحال وسقوطها وقلتها (٢٩) . وقال أبو حيان : معناه تخسيس لما يأخذونه وتحقير له (٣٠). وليس في الأمر خسة ولارداءة إذا ما طلب المعنى الدقيق للفظة (أدنى) وما فعله هؤلاء أنهم اكتفوا بظاهر الكتاب فأخذوا منه ما كان قريبا من فهمهم جميعا ولم يلتفتوا إلى ما يفهمه رهبانهم وعلمائهم الذين يحق لهم استنباط الأحكام ولذلك وقعوا في ترهات البسابس كلما عرض لهم حكم يلائم رغباتهم أخذوا به من دون تدبر ولا دراسة فعبر عن فعلهم هذا بالعرض الأدنى أي الحكم القريب من المدارك المحدودة والمطلوب الحكم العميق المستحصل بالتدبر والاجتهاد الذي لا يصدر إلا من عالم فقيه ..... ويمكن قبول ما قاله المفسرون وهو أن (أدنى) بمعنى أكثر رداءة وخسة من

جانب أن متعلق أدنى المحذوف الذي سبقت الإشارة إلى أن السياق يستدعيه هو هابط دلاليا وأصل التركيب : (الحكم العارض أدنى إلى فهمهم من الحكم الدائم) ولما كان هؤلاء الخلف جهلة محدودي الادراك غير قادرين على فهم التوراة هبطت دلالة اللفظ (أدنى) لأن معناه يستدعي المفاضلة بينهم وبين غيرهم في قرب الحكم إلى مدارك الجهلة منه إلى مدارك العلماء . وعدا هذا الوجه ليس في (أدنى) أي ملمح دلالي على الحقارة أو الابتذال أو الانحطاط كما فهم كثير من المفسرين من وروده في سياقات قرآنية يوحي ظاهرها بأن أدنى تعني أحط منزلة أو أحقر مكانا إذ أن أدنى باقية على معناه الوحيد وهو الدلالة على اشتراك موضعين أو زمانين في الدنو والقرب من شيء ما وقد فاق أحد ذينك الموضعين أو الزمانين صاحبه في الدنو من ذلك الشيء . وأما اللفظ (دنيا) مؤنث أدنى فقد خصصت دلالته في القرآن الكريم بالحياة المعهودة المشهودة زمانا ومكانا والمراد بالحياة الدنيا أي القريبة منا نحن الأحياء ولكثرة نعت هذه الحياة بالدنيا اكتفي بلفظ الدنيا ليكون اسما لها بعد أن كان نعتا وهو من باب التوسع في لفظ النعت ليحل محل الاسم وعلى الرغم من ذلك فرق القرآن الكريم بين (الدنيا) و (الحياة الدنيا) فاستعمل الدنيا للدلالة على حياة البشرية منذ الاستخلاف في الأرض حتى البعث على حين استعمل الحياة الدنيا للدلالة على حياة الانسان منذ ولادته حتى مماته وهذا مدرك واضح في القرآن الكريم فليتأمل المتأملون .

(١) أسرار العربية للأنباري (تحقيق بهجة البيطار ١٩٥٧) : ١/١٦٧_١٦٨ وشرح عمدة الحافظ لابن مالك (مطبعة العاني ، ١٩٧٧) : ٤١٢ وشرح قطر الندى لابن هشام تحقيق م(حمد محيي الدين ، ط ١١ ، ١٩٦٣): ٢٣٠ – ٢٣١ وشرح التصريح على

التوضيح للأزهري (عيسى البابي الحلبي) : ١ / ٣٤٢٣٤. وهمع الهوامع للسيوطي (دار المعرفة ، بيروت) : ١/١٩٩_٢٠٠. (٢) الكشاف للزمخشري) دار الفكر (١٩٧٧) : ٣ / ٥٤٦.

الكشاف ٣/٥٤٦ .

(٤) المفردات للراغب الأصفهاني الدار الشامية ، بيروت) : (زوج) الكشاف ٢/٥٠٧

(٦) نفسه

(٣)

(°)

(٧) مغني اللبيب لابن هشام (تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، مؤسسة الصادق ، دمشق) : ١/١١١_١١٣

٨) الكشاف ١/ ٢٥٦_٠٢٥٧ (٩) نفسه ٣/٤٩٢ (١٠) نفسه ٦٣٠١١

(١١)نفسه ٣/٢١٠ (١٢) نفسه ٣/٣٩٢

(١٣) الكشاف ٢/٢٨٤ و ٣/٢٥٣ و ٤/٢٦٩ والبحر المحيط لأبي حيان (مصر ١٣٢٨ هـ) : ٨/٤٩٠ وروح المعاني للسيد محمود الألوسي (إدارة الطباعة المنيرية _دار إحياء التراث العربي : ٣٠ / ١٧٦.

(١٤) الكشاف : ٣/٢٥٧. (١٥) البحر المحيط : ٤/٦٣٤

(١٦) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير) تحقيق الزاوي والطناحي (١٩٦٣) : (تحت)

(١٧) ينظر النهاية (تحت) واللسان) مصورة عن طبعة بولاق) : (تحت) . (١٨) البحر المحيط ١/١٤٧.

(١٩) شرح نهج البلاغة للبحراني) دار الثقلين بيروت (١٩٩٩) : ٥/٢٦٤.

(٢٠) الكشاف: ١/ ٢٤٣ (٢١) حاشية الجرجاني على الكشاف : ١/٢٤٣.

(٢٢) البحر المحيط ١/ ٤٤٧ .

(٢٣) الخصائص لابن جني) تحقيق النجار ، دا الشؤون الثقافية) : ٢/١٣٥_١٤١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس (تحقيق زهير غازي ، مطبعة العاني بغداد) : ٣ / ٣١٤

(٢٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة (تحقيق محمد فؤاد سركين ، مكتبة الخانجي) : ٢/٢٤٥ والكشاف ٤/٤٥٣ والبيان في غريب إعراب القرآن للأنباري تحقيق طه عبد الحميد طه ، الهيأة المصرية ، (١٩٨٠ : ٢/٢٤٦٤١١ . والجامع لأحكام القرآن للقرطبي(دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (١٩٦٦): ١٧/ ١٧٩_١٩٠ .

(٢٦) ينظر : معاني القرآن للفراء) عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٠): ١/٤٢ والمحتسب لابن جني (تحقيق النجدي والنجار وشلبي القاهرة (١٩٥٩) : ١/٨٨ .

(٢٧) الكشاف ٤/٢٨. (٢٨) البحر المحيط : ٢/ ٠٥٦٨ (٢٩) الكشاف : ٢/١٦٤ (٣٠) البحر المحيط : ٤ / ٥٢٥